بوّابة جحيم العراق

احمد سعداوي

نشأ أبناء جيلي في دولة ونظام سياسي كان يُسمّي عبد الكريم قاسم في وسائل الإعلام، وحتّى في المناهج الدراسية بأنّه «شُعُوبيّ». لم نكن نفهم معنى المفردة بشكل دقيق، خصوصاً أنّها استُقيمت من التراث في مناهضة دعاوى النُّخَب الفارسية والتركية إبّان العصر العبّاسي، الطالبين بالمساواة مع العرب تحت راية الإسلام. كان عبد الكريم قاسم شُعُوبيّاً في العراق، لأنّه كان ضدّ المشاريع القومية العربية، ولا يُرحّب بالاندماج مع الجمهورية العربية المتّحدة، وهي تجربة انهارت سريعاً، ولم يكن لها أفق، بعيداً عن إعلام سلطة البعث وخطابها الرسّمي، كان المجتمع العراقي خلف جدران البيوت، له رأي آخر، خصوصاً أولئك المنحدرين من الجنوب العراقي، فهم يرون عبد الكريم قاسم رجلاً وطنياً. أمّا عند أهالي مدينة الثورة (تسمّى اليوم مدينة الصدر) فهو يقارب صفات القدّيسين والأنبياء. السبب في هذه المحبّة الاستثنائية والولاء المستمرّ، الذي خرج إلى العلن ما بعد 2003، أنّ قاسم أسكن سكّان الصرائف وبيوت القصب والطين العشوائية، من النازحين إلى بغداد من الجنوب، في بيوت نظامية. كما أنّ فترة حكمه القصيرة (أربع سنوات وسبعة أشهر)، التي انتهت بانقلاب رفيق قاسم، عبد السلام عارف (فبراير/ شباط 1963)، أبقت صورته زاهية، ولم تتلوّث كثيراً في أذهان الناس.

نشأت أنا في هذه البيئة الاجتماعية، أسمع التشويهات الإعلامية الرسمية التي تصف قاسم بالشُّعُوبيّ والديكتاتور، في مفارقة صارخة، فهذا يجري في زمن صدّام حسين، أعتى ديكتاتور مرّ في تاريخ العراق، ثمّ أسمع في البيت، وبين الأقارب، مديحاً مبالغاً فيه لقاسم وحقبته. وكنت أفهم أنّ جزءاً من هذا المديح هو نكاية بالنظام السياسي للبعث الحاكم. ظهرت عشرات الكتب التي تفحص حقبة قاسم وانقلابه على النظام الملكي، وانقسم المثقّفون والمعلّقون حول هذا الحدث إلى فريقين، يُحدّدان السجال مع كلّ ذكرى سنوية لانقلاب 1958. ظلّ ولاء الناس لعبد الكريم قاسم واستمروا يحبّونه، حتّى إنّهم أقاموا له تماثيل في ساحات وشوارع بغداد، أحدها في المكان الذي نفّذ صدام ورفاقه فيه عملية اغتيال فاشلة ضدّ قاسم في شارع الرشيد ببغداد، وآخرها تمثال مهيب في مبنى الإذاعة والتلفزيون في الصالحية ببغداد، وهو المكان الذي أعدم فيه قاسم.

لم تعجبني السجالات المُحبّة والكارهة، والتي تتجدّد مع كلّ مناسبة، لأنّ فيها انحيازات مُسبقة، ولكنّني لم أحبّ قاسم لأنّني تربّيت تحت سطوة البعث، ولم أعرف قاسم جيداً وقتها، ثمّ بعد زوال البعث ونظامه، صرت أمام مصادر متعدّدة تراجع حقبة قاسم وما قبلها في النظام الملكي، وما بعدها من انقلابات عسكرية انتهت بنظام صدّام، وصرت في منطقة خارج الحُبّ والكُره، هي منطقة الفهم والتعرّف. الشيء الذي صار يتأكّد عندي، مع تزايد المعلومات، أنّ أهلي وناسي، الذين يمجّدون عبد الكريم قاسم، لم يكونوا يعرفون أنّ البيوت التي منحها لهم كانوا سيحصلون عليها في الأحوال كلّها، بل إنّ ما منحهم قاسم هو مُجرّد قطع أراض مع مبلغ يساعد في البناء، بينما منح الضبّاط أراضي أكبر في أحياء أوسع. كان المشروع من ضمن مقررات مجلس الإعمار في العهد الملكي، وكان من المُفترض أن يُنفّذ بطريقة أفضل. ولم يكن من بنات أفكار قاسم. وعديد المشاريع التي افتتحها كانت كاملة وجاء هو ليقصّ الشريط فحسب، وبعض المشاريع التي نفّذها في فترة حكمه القصيرة استلّها من أوراق مجلس الإعمار الملكي، لكنّ هذه الإنجازات مع حسن النيّات لا تشفع لقاسم.

هناك لوحة للفنان العراقي علي آل تاجر يرسم فيها قاسم في صورة سمكة كبيرة خضراء، ودلخلها سمكة حمراء (تمثّل نظام صدّام)، ثمّ في داخل السمكة الصدّامية هناك سمكة صغيرة سوداء، تمثّل النظام الحالي. أتفهّم محبّة الناس لهذا الضابط العسكري، ولكنّي لا أستطيع النظر إليه صاحبَ إنجازات، أو ربّما إنجازه الأبرز والأكثر أهمّية أنه فتح بوّابة الجحيم على العراق.

فكرتان تُفسّران سلوك حكومة الاحتلال

سعيد زيداني

فكرتان تُفسّران مواقفَ (وتصرّفات) حكومة إسرائيل اليمينية المُتطرّفة برئاسة بنيامين نتنياهو فيما يتعلّق بالقضيتَين المُترابطتَين: صفقة تبادل الرهائن/ الأسرى، ووقف إطلاق النار والانسحاب من قطاع غزّة: الحيلولة دون قيام دولة فلسطينية مستقلّة أولاً، وترميم «الجدار الحديدي» ثانياً. أمّا فكرة «الجدار الحديدي» فمفادها امتلاك وتفعيل تلك القوّة العسكرية القادرة على ردع وهزيمة الأعداء المتربّصين، فرادى كانوا أو جماعات، وذلك قبل التوصّل إلى أيّ اتفاقيات أو تفاهمات معهم. وهي فكرة صاغها ورؤجها زئيف جابوتنسكي في عشرينيّات القرن الماضي، أي قبل قيام دولة إسرائيل، وحين كان مشروع الدولة اليهودية لا يستثني الضفّة الشرقية لنهر الأردن. هاتان الفكرتان تُفسّران تماسك الائتلاف الحكومي الذي يرأسه نتنياهو، وإصرار حكومة إسرائيل اليمينية على مواصلة الحرب التدميرية على قطاع غزّة حتّى هزيمة المقاومة، والإعداد لعملية أو ضربات عسكرية من شأنها ردع حزب الله من جهة ثالثة. وإذا كان الأمر كذلك، فليس صحيحاً ما يقوله ويردّده مُحلّلون سياسيون، عربٌ وغيرهم، الذين يُفسّرون تصلّب نتنياهو في المفاوضات بشأن صفقة الرهائن/ الأسرى، وما يُقابلها من وقف الحرب والانسحاب من قطاع غزّة، بدوافع ذات علاقة بمستقبله الشخصي/ السياسي، وبمستقبل الائتلاف الحكومي الذي يرأسه نتنياهو منذ بداية العام الماضي؛ ذلك الائتلاف اليميني الأكثر تطرّفاً منذ قيام الدولة العبرية. نتنياهو يفاخر ويجاهر بموقفه المعادي لقيام دولة فلسطينية مستقلّة قبل وبعد الحرب على غزّة، وشركاؤه في الائتلاف الحكومي الحالي، خاصّةً حزبَي الصهيونية الدينية، يغذّون هذا الموقف، ويُعبّرون عن ذلك بالأقوال والأفعال. والممارسات الإسرائيلية ضد الفلسطينيين في الضفّة الغربية، التي تشمل مدينة القدس الشرقية، خير دليل على ذلك. في ظلّ هذه الحكومة اليمينية، خاصّة منذ اندلاع الحرب الوحشية على قطاع غزّة، ازدادت اقتحامات المدن والقرى والمخيّمات، خاصّة في محافظات شمال الضفّة الغربية (آدَت إلى ارتقاء ما لا يقلّ عن 660 فلسطينياً وجرح آلاف)، كما ازدادت مصادرة الأراضي لغرض تكثيف الاستيطان. وعادت الحواجز العسكرية الفاصلة بين المدن الفلسطينية، وبين كلّ مدينة ومحيطها من القرى والمُخيّمات، إلى ما كان عليه الحال أيّام انتفاضة القدس والأقصى قبل عقدين من الزمن. وعن الاعتقالات (طوالت ما يزيد عن عشرة آلاف فلسطيني)، وهدم المنازل وعنف المستوطنين والضغوط الاقتصادية، فالحديث بلا حرج. كما لم يسلم الحرم القدسي الشريف من هذه الاعتداءات. ويُلوّح وزير الأمن القومي الإسرائيلي إيتمار بن غفير، بفرطسته المعهودة، ببناء كنيس يهودي هناك.

> ليس صحيحاً تفسير تصلّب نتنياهو في المفاوضات ورفضه وقف النار بدوافعَ تتعلّق بمستقبله ومستقبل ائتلافه الحاكم لا أكثر

باختصار، الحرب المدمرة على قطاع غزّة، والاعتداءات المتصاعدة على الضفّة الغربية والقدس الشرقية، وتكريس الفصل بين غزّة والضفّة، تهدف بوضوح إلى سدّ الطريق على قيام دولة فلسطينية مستقلّة تحتضن شطري الوطن. وإنهاك السلطة الفلسطينية مالياً وقدرات حكم يصب في خدمة هذا الهدف المُشتهى. إجمالاً، فإنّ ترميم الجدار الحديدي، الذي تصدّع بسبب عملية طوفان الأقصى، والحيلولة دون قيام دولة فلسطينية مستقلّة تجمع بين شطري الوطن، هما المادة اللاصقة بين مكوّنات الائتلاف الحكومي، الذي يقف حتّى يزن ألف طنّ من المتفجرات، ثمّ يتفقد منّا الإبادة، نحن المتفرّجين في الخارج على صنوف جرائمها ووحشيّتها، حتّى نصل إلى لحظة نفقد فيها الشعورَ بوطأة العجز أمام هول ما نراه أو نسمعه.

وتستمرّ الحوارات والتحليلات السياسية في تفسير ما هو واضح من مآلات هذه الإبادة، التي تحتاج الآن محلّلين نفسيين لا محلّلين سياسيين، يُحلّلون شخصية المُجرم ونفسية الضحية. نحتاج إلى مُحلّلين نفسيين للمُحلّلين السياسيين أنفسهم، ووسائل الإعلام التي تنشد خبراً عن مجزرة جديدة كي تُغذّي شاشاتها بالإثارة، وتستقطب ملايين المتفرّجين الذين يتلوّون ألماً أو أولئك الذين يخشون على استثماراتهم إن توسّعت حرب غزّة لتغزو بُلداناً أخرى، قد تكون بلدانهم. نحتاج إلى مُحلّلين نفسيين لأولئك القادة السياسيين، أو الميدانيين، وحملة الألقاب العلمية من ذوي الاختصاص، وهم لا يكفّون عن الثرثرة فوق جثامين الإبادة من غير أن يوقفوا الحوار، ولو قليلاً، للنظر في عيون طفلة أُخرِجَت للتوّ من تحت الركام، لتجد نفسها وحيدةً من غير أمّ أو أب أو عمّ أو خال، بعد أن مُسحت عائلتها من السجلّ المدني، وكأنّ تلك العبارة باتت عاديةً ومألوفةً للسمع من كثرة التكرار الذي يقودنا إلى التعوّد.

نحن، من لسنا هناك، من نتسمّر أمام الشاشات البعيدة، ونتخيّل أنفسنا هناك في غزّة، فيتقلّبنا التخيّل الافتراضي من جهة، ويُخدّر أحاسيسنا من جهة أخرى، نحن من يستحثّنا الفظيع أن نصرخ، لكن الصوت مكتوم، إذ ثمّة من يجلس على كرسيّه ليمنعك ويمنعني من أن نصدر صوتاً، وإلا سيفعل بك أو بي ما لا داعي لتكرارها هنا كي لا ينتابكم الملل. نعم، الملل الذي يُؤدّي إلى تعوّد أفعال الإبادة الجماعية، ويسلب منّا الشعور بالآخر النازح والمقاتل والمتيتّم والجائع، لماذا لم يطرقوا جدران الخزّان؟... سؤال مرير طرحه المهرّب أبو الخيزران على نفسه في رواية غسان كنفاني «رجال في الشمس»، حين اكتشف أنّ الفلسطينيين الذين كان يهرّبهم إلى الكويت داخل خزّان مياه من المعدن ماتوا اختناقاً. كان الهدف الدخول خلسةً إلى الكويت للبحث عن عمل، من أجل التغلّب على تداعيات النكبة (1948)، ليست نكبة خسارة الوطن فقط، بل أيضاً نكبة الفقر المدقع الذي وجدوا أنفسهم فيه بعد أن خسروا ما يملكون كلّه، ما يمكن أن يمدّهم بأسباب الحياة. كان السؤال عرضياً بالنسبة لغسّان الذي اختبر بنفسه مرارة اللجوء، وذهب إلى العمل في دول الخليج كي يعيل أسرته، بعد أن سلبها الصهاينة الوطن، وسبل العيش كلّها، واقتلعها من أرضها كما آلاف الفلسطينيين، وقذف بهم إلى جحيم اللجوء. اختبأ رجال غسّان في خزّان ضيّق تحت حرارة شمس الصحراء، وتُوفّوا جميعاً عطشاً واختناقاً وفقداناً للأمل، فيما كان أبو الخيزران يُبدّد الوقت في حديث تافه عن النساء مع شرطي الحدود. ما أشبه اليوم بأمس. مع فارق أنّ أهل غزّة يبادرون في مدار الساعة، وأمام كاميرات الفضائيات والعالم بأسره، إلى الهتاف: لماذا لا يطرقوا جدران الخزّان أو يصرخوا طلباً للإغاثة. لا داعي لذلك كلّه، فالكاميرات تصوّر والعالم كلّه يعرف ما يحدث لهم دقيقة بدقيقة. تنتفض الجموع في عموم كوكب الأرض احتجاجاً على الإبادة الجماعية، التي تُخدّر أشكالاً متنوعة ومرعبة لا تخطر في بال أي مخيّلة إجرامية مهما بلغت أقصى حدود الخيال. لا داعي لتكرارها هنا كي لا ينتابكم الملل. نعم، الملل الذي يُؤدّي إلى تعوّد أفعال الإبادة الجماعية، ويسلب منّا الشعور بالآخر النازح والمقاتل والمتيتّم والجائع، حتّى يصبح غيرَ المألوف مألوفاً، لتنال منّا الإبادة، نحن المتفرّجين في الخارج على صنوف جرائمها ووحشيّتها، حتّى نصل إلى لحظة نفقد فيها الشعورَ بوطأة العجز أمام هول ما نراه أو نسمعه.

> لماذا لم يطرقوا جدران الخزّان؟... سؤال مرير طرحه المهرّب أبو الخيزران على نفسه في رواية غسان كنفاني «رجال في الشمس»، حين اكتشف أنّ الفلسطينيين الذين كان يهرّبهم إلى الكويت داخل خزّان مياه من المعدن ماتوا اختناقاً. كان الهدف الدخول خلسةً إلى الكويت للبحث عن عمل، من أجل التغلّب على تداعيات النكبة (1948)، ليست نكبة خسارة الوطن فقط، بل أيضاً نكبة الفقر المدقع الذي وجدوا أنفسهم فيه بعد أن خسروا ما يملكون كلّه، ما يمكن أن يمدّهم بأسباب الحياة. كان السؤال عرضياً بالنسبة لغسّان الذي اختبر بنفسه مرارة اللجوء، وذهب إلى العمل في دول الخليج كي يعيل أسرته، بعد أن سلبها الصهاينة الوطن، وسبل العيش كلّها، واقتلعها من أرضها كما آلاف الفلسطينيين، وقذف بهم إلى جحيم اللجوء. اختبأ رجال غسّان في خزّان ضيّق تحت حرارة شمس الصحراء، وتُوفّوا جميعاً عطشاً واختناقاً وفقداناً للأمل، فيما كان أبو الخيزران يُبدّد الوقت في حديث تافه عن النساء مع شرطي الحدود. ما أشبه اليوم بأمس. مع فارق أنّ أهل غزّة يبادرون في مدار الساعة، وأمام كاميرات الفضائيات والعالم بأسره، إلى الهتاف: لماذا لا يطرقوا جدران الخزّان أو يصرخوا طلباً للإغاثة؟ وإن تعمل على الاستفادة من استغلال الوضع القائم في منطقة المحيطين، وتقدم على تحقيق حلمها، كما تفعل اليوم إسرائيل في فلسطين، حيث تستغلّ وجود الأميركي في المنطقة، والذي يشكّل قوة رادعة حقيقية لمحور الممانعة، حيث عملت على تدمير قطاع غزّة وتهجير ناسها، وها هي اليوم تقوم بالعمل ذاته في الضفّة الغربية لتحقّق «صفقة القرن»، التي وقّعها دونالد ترامب؟

(كاتب لبناني)

فرصة الصين التاريخية

جيرار ديب

ذكرت صحيفة واشنطن تايمز أن «الجيش الأميركي، لم تعد لديه، وللمرّة الأولى منذ عقود، حاملات طائرات في المحيطين الهندي والهادئ». وتوقّفت عند تزامن ذلك مع التوترات المتزايدة مع الصين بشأن الجزر المتنازع عليها بين الصين وتايوان في بحر الصين الجنوبي. خشية من تصعيد إيراني محتمل مع إسرائيل، على خلفية ردّها المنتظر على اغتيال إسماعيل هنيّة، حيث قال قائد الحرس الثوري الإيراني، اللواء حسين سلامي، أمام حشد شعبي، في 24 الشهر الماضي (أغسطس/ آب) «ستسمعون أخباراً جيّدة بشأن انتقامنا». أمرت وزارة الدفاع الأميركية أخيراً حاملة الطائرات «يو أس أس أبراهام لينكولن» بتسريع انتشارها من المحيط الهادئ إلى شرق المتوسّط. وفي وقت سابق، جرى إرسال حاملة الطائرات «يو أس أس تيودور روزفلت»، إلى الشرق الأوسط أيضاً. وذكرت البحرية الأميركية في بيان، في 19 أغسطس الماضي، أنّ السفينتين الحربيتين موجودتان حالياً في خليج عُمان. «الأمر خطير» في منطقة المحيطين بالنسبة إلى حلفاء أميركا، هذا ما يمكننا استنتاجه بعد عملية إعادة الانتشار للجيش الأميركي إذ أصبحت المنطقة خالية من حاملات الطائرات الأميركية للمرّة الأولى منذ العام 2001. قد يقرأ بعضهم في هذا رسالة من إدارة الرئيس جو بايدن أنّها لا تريد التصعيد حالياً مع الصين، رغم تهديدات بكين المستمرّة للحزب الحاكم في الصين، تدفع نحو إنهاء الصراع بالطرق الدبلوماسية، والآ تذهب نحو أيّ تصعيد عسكري. هل هي الفرصة الصينية الحقيقية من القيام بضربة خاطفة تجاه تايوان لضمّها بالقوة إلى أراضيها بعدما تعثّرت كافّة الطرق الدبلوماسية لذلك؟ وإن تعمل على الاستفادة من استغلال الوضع القائم في منطقة المحيطين، وتقدم على تحقيق حلمها، كما تفعل اليوم إسرائيل في فلسطين، حيث تستغلّ وجود الأميركي في المنطقة، والذي يشكّل قوة رادعة حقيقية لمحور الممانعة، حيث عملت على تدمير قطاع غزّة وتهجير ناسها، وها هي اليوم تقوم بالعمل ذاته في الضفّة الغربية لتحقّق «صفقة القرن»، التي وقّعها دونالد ترامب؟

(كاتب لبناني)

كاريكاتير — عماد حجاج

حرب غزّة ومآلاتها المحتملة إقليمياً

عبد الباسط سيدا

أسابيع قليلة وتدخل الحرب الإسرائيلية على غزّة عامها الثاني؛ إذ سارت الأمور على منوالها الحالي، ولم تُبدّل جهودٌ جادّةٌ بغية التوصل إلى توافقات معقولة، من الواضح أنّها بعيدة المنال رغم الهدنة الخاصّة بتقديم لقاحات شلل الأطفال، نتيجة عدم وجود رغبة لدى رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو، واختلاقه الأعذار بصورة مستمرّة، فهو يفاوض بناءً على خطّة واضحة المعالم والأغراض بالنسبة إليه؛ كما أنّه على دراية بوجود تغطية أميركية له، رغم تباين التقديرات والتصريحات، على عكس حركة حماس، التي تدرك أنّها لا تمتلك الدعم الدولي الذي تمتلكه إسرائيل، كما تدرك أنّ «محور المقاومة» بقيادة النظام الإيراني غير مستعدّ للدخول في حرب إقليمية، أو حتّى القيام بعمليات نوعية، كان من شأنها تخفيف الضغط، ولو بصورة نسبية، على غزّة.

هذا في حين أنّ الدول العربية بصورة عامة حدّدت مواقفها، واثرت سياسة النأي بالنفس إلى هذا الحدّ أو ذاك. أما الدول العربية المزاومة أصلاً، فهي منشغلة بخلافاتها وصراعاتها البينية، التي تستنزف الموارد بأشكالها كلّها، وتساهم في إحداث مشكلات إضافية ترهق الدول والمجتمعات المعنية. ولكن الأمر الذي يقصم ظهر الفلسطينيين أكثر من غيره واقع الانقسام الداخلي البيني، والثقة شبه المعدومة بين القطبين الرئيسين، حركتي فتح وحماس، رغم الجمل الإنشائية المجاملة الخاوية عملياً من أيّ مضمون حقيقي التي نسمعها في المناسبات للاستهلاك المحلّي، ولا تلزم أصحابها بأيّ مسؤولية أو مساءلة أو محاسبة، رغم تقاسم الطرفين المصير ذاته. ولعلّ الهجمات المتكرّرة للقوات الإسرائيلية على الضفّة الغربية، وحملات الاعتقال التي ترتكبها هناك، تُؤكّدان المعاناة الفلسطينية المشتركة، التي تحتاج راهناً إلى الموقف الفلسطيني الموحّد لمواجهة تحدّياتها أكثر من أيّ وقت مضى. ومن الواضح أنّ الموقف الأميركي، رغم تصريحات المسؤولين الأميركيين في أعلى المستويات، الداعية إلى وضع حدّ للحرب، وإطلاق سراح المُحتجَزين من الجانبين، واعتماد حلّ الدولتين، موقف غير ضاغط بما يكفي على إسرائيل، ولعلّ هذا ما يُفسّر تأكيدات المسؤولين المعنيين أنفسهم بالتزامهم بحماية إسرائيل، وضمان أمنها في جميع الظروف، وهو الأمر الذي تنلمّسه في أرض الواقع إظهاراً للقوّة بشكل غير مسبوق، ويشمل ذلك حاملات الطائرات والبوارج القتالية، والصواريخ الاستراتيجية، وأحدث التقنيات العسكرية، إلى جانب الزيارات المكّوكية للمسؤولين السياسيين والعسكريين الأميركيين. وعلى الأكثر، لن تكون زيارة رئيس هيئة الأركان المشتركة للجيش الأميركي سي كيو براون آخر تلك الزيارات في هذا المجال.

واللافت أنّ الدول العربية عامة، سواء التي أعلنت (وتعلن) وقوفها إلى جانب إسرائيل، أم التي تناصر القضية الفلسطينية، تكتفي بموقف المتفرّج المتابع، بينما تستمرّ معاناة الفلسطينيين في غزّة، وفي الضفّة الغربية، وفي القدس، وفي مخيّمات اللجوء في الشتات، وفي مخيّمات النزوح في الداخل، وفي المعتقلات الإسرائيلية، وفي المنافي القسرية، وتتكرّس الفصل بين غزّة والضفّة، تهدف بوضوح إلى سدّ الطريق على قيام دولة فلسطينية مستقلّة، وإنهاء السلطة الفلسطينية مالياً وقدرات حكم يصب في خدمة هذا الهدف المُشتهى. وإجمالاً، فإنّ ترميم الجدار الحديدي، الذي تصدّع بسبب عملية طوفان الأقصى، والحيلولة دون قيام دولة فلسطينية مستقلّة تجمع بين شطري الوطن، هما المادة اللاصقة بين مكوّنات الائتلاف الحكومي، الذي يقف نتنياهو في رأسه منذ بداية العام الماضي؛ هذه هي حكومة الحلم بالنسبة له، ولا بديل له منها، ولا بديل للشركاء منها، رغم التوتّرات التي تطفو على السطح أحياناً. هذه حكومة عصبية عن التفكّك نتيجة التوتّرات الداخلية بين مُركّباتها. وإذا حدث وتفكّكت، يكون ذلك نتيجة أسباب خارجية، بمعنى خارج رغبة أو مصلحة المُكوّنات أو المُركّبات. غني عن القول في هذا الصدد إنّ بقاء هذا الائتلاف الحكومي الحالي يخدم المصالح الأخرى لنتنياهو، وفي رأسها إفلاته من المساءلة السياسية والقضائية، وتعليق القضايا القانونية السابقة للحرب ضدّه، قضايا ذات علاقة بتهم الفساد والرشوة وخيانة الأمانة.

إذا كان ما ورد أعلاه صحيحاً، فلا مهرب من الاستنتاجات التالية. أولاً: هذه الحكومة الإسرائيلية اليمينية المُتطرّفة معنية بمواصلة الحرب والقتال في قطاع غزّة وفي الضفّة الغربية وفي الحدود الشمالية إلى أن تُحقّق أهدافها، وهي لا تُعطي قضية تحرير الرهائن أولوية على الإطلاق، وهي لا تزال داعماً لها، ولما ترتكبه من الجرائم والفظائع ضدّ الفلسطينيين داخل غزّة وخارجها. هذه الحكومة اليمينية المُتطرّفة ليست مرامیها وأهدافها عصيّة على الإحباط، بفعل الصمود والنضال، كما بفعل الملاحقات في المحافل والمحاكم الدولية، كما بفعل إسناد أحرار العرب والعالم، ولما يلا يستثني البهود المناوئين لها، سواء داخل إسرائيل أو خارجها.

(أستاذ الفلسفة في جامعة القدس سابقاً)

> لا قرار لدى إيران بدخول حرب إقليمية، ولا تمتلك التمويل اللازم لها، ولا التكنولوجيا العسكرية المتطوّرة لمواجهة إسرائيل

أخطر ما في الإبادة التعوّد

سامية عيسى

حتّى يصبح غيرَ المألوف مألوفاً، لتنال منّا الإبادة، نحن المتفرّجين في الخارج ملامحه ويصوغ لغةً جسد تعبنه على الخداع أو كبت صراخك، وهو لا يعلم أو يعلم أنّ الإبادة تغلغلت فيك بفعل التعوّد، ولا يوجد أيّ خطر منك يتهدّده، فاهنأوا بعرشكم أيّها الأعداء والأصدقاء، إن كان هذا العرش في قصر أو في ناطحة سحاب أو في ملجأ تحت الأرض أو فوقها، أو يكفي أن يكون نفقاً، فلن يستتب بكم أحد، ولا حتّى توسّلات امرأة من أجل حياة صغارها، وليقم غسان كنفاني من قبره الآن ليسأل نفسه بعد أن طرق الفلسطينيون والفلسطينيات جدران الخزانات كلّها، وجدران الحصارات كلّها، والأرض والسجون من غير أن يعرفوا لأيّ معتصم يستغيثون، أو أيّ جدار يطرقون. إنّ أحسنهم يا غسان لا يعدو أن يكونوا مغلوبين على أمرهم، أو تجّار مقاومة ليس إلّا، يخوضون الحروب كأنّها ألعاب فيديو، ويتحدّثون عن الإبادة الجماعية بوصف ضحاياها أسطورة صمود.

(كاتبة فلسطينية في بيروت)

> يباد أهل غزّة أمام أنظار العالم، ولا داعي لأن يطرقوا جدران الخزّان أو يصرخوا طلباً للإغاثة

يستشهد الفتى في جنين مرّتَين

عيسى الشعيبي

ما نحن بصدده محاولةٌ أولى من نوعها لبناء إطار نظريٍّ لصورة غير مكتملة المعالم والخطوط، والألوان، تكوّنت ملامحُها عبر حكاياتٍ شفويةٍ متناقلة في المجال المحلّي العام داخل مدينة جنين، وفي محيطها الاجتماعي اللصيق، على السنة أمّهاتٍ وآباءٍ قليلي الكلام، وأقاربَ وجيران يُؤثرون الصمت لدواعٍ أمنية مفهومة، أو لأسباب من خارج حيّز الإدراك بأهمّية تشكّل حالةٍ وطنيةٍ نادرةٍ الحدوث في مجرى التطوّرات الكفاحية المتراكمة، والظواهر الاجتماعية الطارئة، في سجلّ الصراع الطويل.

في تتبّع معالم هذه الحالة المتداولة بلا تأصيل، المتروكة للثقافة الشفوية الشعبية القائمة على النقل والقصّ والقيل والقال، يجد الباحثُ الدؤوبُ أو المُحلّلُ السياسيُّ نفسَه من دون أرضية معرفية متماسكة يقف عليها، مثل وجود مسح اجتماعي موثوق، أو تحقيق صحافي استقصائي منشور، أو أيّ مادّة مكتوبة، تُشخّص ظاهرة «استشهاد الفتى مرّتَين» هذه، التي لم يصحّ توثيقها في حماة القتال، إن لم نقل إنّه من غير المفيد استقصاء دوافعها وبيان ديناميّاتها وتعليل روافعها السياسية، ولا سيّما في هذه الآونة من الحرب التي تضطرم أكثر وتتّسع تدريجياً.

غير أنّ ما يُحفّز المرءَ على القيام بهذه المحاولة الشائقة، والجري وراء مكنوناتها الدفينة، بحثاً عن ينابيع ظاهرة الاستشهاد مرّتَين في جنين، ناهيك عن شقيقاتها شمال الضفّة الغربية وجنوبها، هو ما راح يتواتر أخيراً من أحاديث للإعلام، أدلت بها شخصيات اعتبارية مرموقة، ورجالات من عالم الأكاديميا والاجتماع والثقافة والعلوم، فضلاً عن مراسلي الصحف والشبكات الإخبارية، لماذا، وعلى نحو مُتفرّق، عن وجود هذه الحالة المثيرة للانطباع، حالة أخذت تتجلّى أكثر من ذي قبل مع اشتداد المواجهات في جبهة الضفّة المحتلّة، جنباً إلى جنب، وبالتوازي مع احتدام حرب الإبادة على غزّة. ومع أنّه يمكن العثور على مثيلات تحاكي هذه الظاهرة في أزمنة سابقة من تاريخ الكفاح الفلسطيني، إلّا أنّ ما نحن بصدده في هذه العجالة هو أكثر وضوحاً واكتمالاً منا سبق، بفضل زيادة درجة المعرفة العامّة، وتحسّن القدرات الذاتية على النقل والسرد والتدوين، من جانب الضحايا وذوي الصلة المباشرة بالوقائع، التي كانوا هم أنفسهم شهوداً عليها، إذ تبدو جنين، المدينة والمُخيّم، أكثر من أخواتها، حاضنةً متميّزةً لأبطال هذه الحكاية، التي لا يستطيع خيال روائي الإتيان بمثلها. بالعودة إلى ينابيع هذه الحالة، التي ترقى إلى ضفاف ظاهرةٍ كفاحيةٍ فلسطينيةٍ مضيئةٍ، نجد أنّ جنين، والمُخيّم القائم في أكنافها، قد شهدا معاً قبل 22 سنة أشدّ وأطول وأبلغ معركة خاضتها المقاومة خلال إعادة احتلال الضفّة الغربية، أبلى فيها المقاتلون البلاء الحسن، قاتلوا بشراسة منقطعة النظير أذهلت الغزاة، وأجبرتهم على الانكفاء بعد أيّام دفع خلالها الاحتلال خسائرَ باهظةً في الأرواح بلغت 28 قتيلاً، وهو ما شكّل منذ ذلك الوقت نُدبةً في الوعي الإسرائيلي. في تلك المعركة التي انتزعت فيها المدينة والمُخيّم، عن جدارة تامّة، لقب «جنين غراد»، استشهد عشرات من المقاومين الشباب، وتركوا وراءهم أولاداً، بعضهم في سن الفطام، وبعضهم أجنّةً في أرحام الأمّهات، حمل هؤلاء، بعد ولادتهم أسماءَ آبائهم أو أعمامهم أو الأخوال الشهداء، تربّوا في أجواء المقاومة، كبروا في مناخ وطني شديد المضاء، ورثوا عن أصلابهم الصلابة والبنادق والرجولة والروح العصية على الانكسار، وها هم يعودون إلى ميدان المعركة إياه من جديد، بالكنية ذاتها وبالأسماء نفسها، يستشهد الواحد منهم للمرّة الثانية، ويصعد محمّدُ الابن إلى السماء، ليقابل محمّداً الأب وجهاً لوجه.

رغم ندرة المعطيات، وشدّة الافتقار إلى سِيَر أبطال ملحمة «طوفان الأقصى» في قطاع غزّة، واليوم في الضفّة الغربية، فإنّ السيرة الذاتية لبعض هؤلاء الفتية، وهم جميعاً في أوائل العشرينيات من العمر، خصوصاً في جنين ونابلس وطولكرم وطوباس، أمثال محمّد جابر (أبو شجاع) وإبراهيم النابلسي وباسل الأعرج وغيرهم ممن استشهدوا مرّتَين في خضمّ هذه المواجهات كلّها، التي تجلّى عن الوصف، هم الأبناء الذين ظلّوا مسكونين بآبائهم عقدين وأكثر، فبدا الابن وهو يتنكّب درب أبيه كمن كان يكتب بخطّ يده (حرفياً) نصّ شهادة ثانية في سفر الخلود.

نجيب محفوظ... لماذا لا يتجاوزه الزمن؟

محمد طلبة رضوان

ما الواقع؟... هذا سؤال يزعم الجميع امتلاك إجابته، فيما تُخبرنا مآلات الإجابات الرائجة أنّ الواقع شيء آخر، غير المتخيّل. أحد تجلّيات العجز عن الإجابة ما حدث في ثورات الربيع العربي، فالأنظمة السياسية المستقرّة، رغم توفّر إمكانات رفع الواقع، لم تدرك واقعاً جديداً يحيط بها، في زمن مواقع التواصل الاجتماعي وقدرة أصحاب أفكار التغيير على تجاوز منافذ التوجيه الحكومية إلى حسابات ملايين المتابعين، فجاءت ثورات «فيسبوك» وأخلّت بتوازن العروش واستقرار الكروش، أمّا أصحاب الانتفاضات المُجهَضة، فقد مثّلوا جسرَ العودة للأنظمة التي أسقطوها للسبب نفسه، العجز عن تقديم إجابات عن سؤال الواقع، واقع الدولة، وواقع السلطة، وواقع الحكم، فتوقّف قطارهم عند حدود النفير، وحين استأنف حركته، كانت قضبانه أرواحهم، ملايين من البشر في تونس ومصر وسورية وليبيا واليمن والسودان ولبنان دفعوا حياتهم وحرّياتهم واستقرار عائلاتهم ثمناً لعجز تُخبِهم في الإجابة عن السؤال.

تتجدّد ذكرى نجيب محفوظ، وتدور الأسئلة بشأنه: الظاهرة والمشروع والمواقف السياسية والأيديولوجية، من دون نهاية. لا يتجاوز الزمن محفوظ، والأسباب أكبر من مقال أو مناقشة، لكنّنا نطمح إلى الكشف عن وجه من الوجوه، وهو هنا قدرة محفوظ المبدع على تقديم إجابة حقيقية عن سؤال «ما الواقع؟»، فإذا كان واقعنا يخضع لأفكارنا، فإنّ ذلك لأنّ أفكارنا ليست تعبيراً عن واقعنا (كما أشار حسن حنفي يوماً)، وحين ينجح أحدنا في الإمساك بالمنطق التاريخية، والتحقّق انطلاقاً منها يتحوّل ظاهرةً، أيّاً كان موقعه السياسي أو الأيديولوجي. هذا هو نجيب محفوظ، الذي نجحت روايات عن الجوهر الإنساني لتجربته الاجتماعية والسياسية، فجعلته «واقعياً» في أحواله كلّها، واقعياً وهو يكتب عن الواقع، وواقعياً وهو يكتب عن التاريخ، وواقعياً وهو يحتال بالرمزية، وواقعياً وهو يختبئ خلف التراث.

من هنا، رأى قُرّاءٌ من الاتجاهات كافّة أنفسهم في روايات نجيب محفوظ، كما استشعر نقّادٌ من الاتجاهات كافّة حاجتهم إلى الاشتباك مع نصوصه، وأحياناً معه. ووصفها ووصفه بـ«المروق»، الذي لم يتعمّده يوماً، ولم يقصد إليه سطراً، فهو عند قطاع من الإسلاميين صاحب رواية «كفرية» هي مؤهّلاته كلّها لنيل جائزة نوبل، جزءاً من مؤامرة كونية على الإسلام، وهو عند قطاع من اليساريين متشائم، يرصد واقعه من دون تقديم حلول ثورية، أو تحريض على التغيير الجذري، أو كشف حقيقي للصراع الطبقي، وهو يميني في إحدى القراءات، رغم روايته التي تبشّر بالاشتراكية والعدالة الاجتماعية، كما أنّه على يسار الإسلام، وربّما الإيمان كلّه، رغم نفَسِه الصوفي الواضح في روايته كافّة، وظلال تراثه الروحي في أدبه، التي رصدها الناقد محمد حسن عبد الله في كتاب تجاوز 300 صفحة بعنوان «الإسلامية والروحية في أدب نجيب محفوظ» (قباء للنشر والتوزيع، 2001).

يتجاوز أدب نجيب محفوظ عجز الأيديولوجيا عن فهم الوجوه المختلفة لواقعنا إلى قدرة ال

ماذا يمكن أن تقدم مصر للصومال؟

الشافعي ابتدون

«محدّش يجرّب مصر»... مضمون خطاب الرئيس المصري عبد الفتّاح السيسي في مؤتمر صحافي مشترك مع نظيره الصومالي حسن شيخ محمود في القاهرة، في يناير/ كانون الثاني الماضي، ترند اجتاح منصّات الميديا الاجتماعية، فُسِّر بأنّه تحوّل استراتيجي في اهتمام القاهرة بمنطقة القرن الأفريقي، والصومال تحديداً، تحوّل يمكن أن يكون طبيعياً اتّساقاً مع المتغيّرات الطارئة في المنطقة، إثر توقيع حكومة رئيس وزراء إثيوبيا أبي أحمد مذكرة تفاهم مع إقليم أرض الصومال، (غير المعترف به دولياً). مرّت تسعة أشهر منذ إطلاق السيسي هذا التهديد المُبطَّن نحو أيّ تحرّك إثيوبي لغزو مياه تُعَدُّ حقّاً صومالياً بامتياز، انطلاقاً من اتفاقية الدفاع العربي المشترك، التي تنص عليها جامعة الدول العربية، ما يعيد التساؤلات حول إمكانية أن يعوّل الصومال على مصر في حال استفحلت الأزمة الدبلوماسية بين مقديشو وأديس أبابا، مع توقيع الدولتين أخيراً اتفاق تعاون عسكري، بين وزيري دفاع البلدين، بحضور الرئيسين الصومالي والمصري (15 أغسطس/ آب الماضي)، فما هو دور مصر الجديد في المنطقة، في وقت تعاني فيه مشكلات مالية ومعيشية نتيجة ارتفاع الدين الخارجي (153 مليار دولار أميركي) بالإضافة إلى الأحداث الأمنية المشتعلة في جوارها، خاصّة في غزّة، بعد عملية طوفان الأقصى، والعدوان الإسرائيلي على القطاع، والحرب في السودان، والأوضاع المتلبّدة أخيراً في ليبيا، وهي كلّها مُؤشّرات تضعف مكانة مصر الإقليمية والعربية؟

تدرك مصر حجم المخاطر المترتّبة من التهديدات الأمنية التي تشهدها منطقة القرن الأفريقي، وتصاعد عمليات جماعة أنصار الله في اليمن ضدّ السفن الأجنبية، ما يُؤثّر سلباً على خطوط الإمداد والنقل البحري، وتعتبر القاهرة أولى المُتضررين من الاضطرابات الناجمة عن تغيّر حركة المرور بنسبة 10% من التجارة العالمية المنقولة بحراً، التي كانت تمرّ عبر قناة السويس. وما يزيد القلق لدى القاهرة هو إمكانية وصول إثيوبيا إلى البحر الأحمر، منافساً إقليمياً يُهدّد مصالحها الجيوسياسية وأمنها المائي، مع بدء إثيوبيا شهر يوليو/ تموز الفائت الملء الخامس لسدّ النهضة، المتوقّع أن ينتهي بحلول نهاية شهر سبتمبر/ أيلول المقبل، من دون أن تقدر مصر على إقناع أديس أبابا بوقف مساعيها المنفردة لهضم حقوق وحصص مصر والسودان المائية، سواء بالتفاوض الدبلوماسي أو اللجوء إلى الخيار العسكري، مع أنّ الخيار الثاني غير وارد في هذه المرحلة التي تعيش فيها القاهرة، في خضمّ أزمات داخلية، وأخرى تتصل بما يجري من حولها من براكين أزمات مشتعلة هنا وهناك.

اللافت أنّ ضوءاً من آخر النفق يلوح في صعيد العلاقات بين مقديشو والقاهرة، منذ إعادة انتخاب شيخ محمود رئيساً للصومال لولاية ثانية في مايو / أيّار 2022، لكنّ المسألة تبقى في كيفية توظيف هذه العلاقة من الجانبين، ومدى قدرة مصر في التموضع عسكرياً في المنطقة، علماً أنّ القاهرة ستتولى إدارة مجلس السلم والأمن للاتحاد الأفريقي أكتوبر/ تشرين الأول المقبل، ووجود استعداد مصري للمشاركة في عملية قوّات حفظ السلام الأفريقية الجديدة، التي ستتولى الأمن والحماية للقواعد العسكرية التي ستخليها البعثة الأفريقية الانتقالية الحالية مع حلول عام 2025، ووجود تأكيد مصري لهذا العرض، حيث ألمح الرئيس المصري عبد الفتّاح السيسي، في آخر لقاء له مع شيخ محمود في القاهرة (15 أغسطس/ آب)، إلى رغبة مصرية جادّة للمشاركة في هذه العملية، إذا سمحت الصومال بانضمام الجنود المصريين إلى عملية حفظ السلام الأفريقية التي ستتألف من 12 ألف جندي أفريقي، هذه الخطوة المصرية لتحريك المياه الراكدة في بركة علاقاتها المتجمّدة مع الصومال، بعثت القلقَ ورسائلَ غير مطمئنة إلى أديس أبابا، ما يعكس فشل استراتيجية أبي أحمد في علاقاته الخارجية مع دول الجوار، مع انهيار الاتفاق الثلاثي بين مقديشو وأديس أبابا وإريتريا، الذي وقّعته الدول الثلاث عام 2018 في أسمرة، ويمنح القاهرةَ راهناً فرصةً لتطويق أديس أبابا من جوارها، وليّ أذرعها، والحدّ من تصاعد نفوذها في منطقة القرن الأفريقي. لا تحتاج الصومال في هذه المرحلة الحرجة، التي تخوض فيها الحكومة الفيدرالية معركة كسر عظم ضدّ حركة الشباب الموالية لتنظيم القاعدة، إلى مُجرَّد إرسال بعثاتٍ تعليميةٍ مصرية أو علاقات ثقافية ودبلوماسية لا ترقى إلى المستوى المطلوب، بل إنّ الشغل الشاغل في اهتمامات الحكومة الفيدرالية ينصبّ حالياً على الهاجس الأمني، وعلى دعم المؤسسة العسكرية تقنياً ولوجستياً، فإذا أرادت مصر أن توثّق علاقاتها مع مقديشو، فعليها التركيز في تعزيز قدرات الجيش الصومالي، وفي تكثيف التدريبات العسكرية لمنتسبي المنظومة الأمنية، وفي التعاون الأمني والاستخباراتي مع الأجهزة الأمنية، وألا تكون الوعود المصرية لدعم المؤسّسة العسكرية في الصومال تحت رهن بيروقراطية النظام المصري، التي ستعيق تحقيق تقدّم ملموس في صعيد التعاون العسكري والأمني بين الجانبَين، فغياب الأمن في الصومال لم يُؤثّر على تماسكه الداخلي فحسب، بل أيضاً تسبّب في تراجع علاقاته الخارجية مع محيطه العربي والأفريقي، خاصّة مع مصر التي كان لها دور مُشرِّف وتأثير قوي في السياسة الصومالية قبل سقوط الدولة المركزية مطلع التسعينيّات من القرن الماضي، وهي العلاقة التي انتقلت من المركز إلى الهامش، ويُعَدُّ محور الأمن كلمة المرور لعودة النفوذ المصري إلى منطقة القرن الأفريقي، فإلى أيّ مدى يمكن أن تنجح القاهرة في ضبط عقارب الساعة من جديد، وتعيد ترتيب أوراقها نحو منطقة متخمة بالتنافس الدولي منذ الألفية الجديدة؟

> الشغل الشاغل في اهتمامات الحكومة الفيدرالية الصومالية ينصبّ على الهاجس الأمني، وعلى دعم المؤسسة العسكرية تقنياً ولوجستياً

> إذا أرادت مصر أن توثّق علاقاتها مع مقديشو، عليها التركيز في تعزيز قدرات الجيش الصومالي

التعاون الاقتصادي يُعَدُّ أيضاً مفتاحاً لروابط اقتصادية متينة بين مقديشو والقاهرة، التي تشهد حالياً نموّاً طفيفاً في التعاون التجاري بينهما، إذ قفز التبادل التجاري بين البلدين فجأة عام 2023 إلى نحو 54 مليون دولار، ويأمل كثيرون من الصوماليين، بعد تدشين مصر للطيران أولى رحلاتها نحو الصومال للمرّة الأولى بعد اندلاع الحرب الأهلية، وبدء عملية تشغيل بنك مصر في مقديشو، وعودة السفارة المصرية إلى العاصمة، أن يُرفع سقف التبادل التجاري بين البلدَين، كما يمكن أن تفتح هذه العلاقة وجهةً جديدةً للتجار الصوماليين نحو القاهرة، كما شدَّوا الرحال سابقاً نحو أنقرة بعد عام 2011، وتُعَدُّ الجالية الصومالية في القاهرة (تقدّر بنحو 20 ألف شخص) المحرك الرئيس في دفع حركة الاستثمار والتنقّلات بين القاهرة ومقديشو، ويستورد الصومال جُل احتياجاته من السلع الاستهلاكية من الخارج، خاصّة الصين والهند وتركيا، وتحتاج عملية التحوّل إلى القاهرة للاستيراد من قبل التجّار الصوماليين جهوداً كبيرةً، والتنسيق بين الحكومتَين لتشجيع حركة التبادل التجاري، تمهيداً لتوفير أرضية صلبة للعلاقات الاقتصادية والتعاون الأمني والدبلوماسي بين مقديشو والقاهرة مستقبلاً.

سابقاً، كان للدبلوماسية المصرية دورٌ كبيرٌ في إمساك زمام المبادرات والوساطة في العمق الأفريقي، عبر استراتيجية احتواء النزاعات والمساهمة في جهود تحقيق السلم والأمن، إلى جانب دعم حركات التحرّر والدول الأفريقية للانعتاق من ربقة المُستعمِر في ستينيّات القرن الماضي، لكنّ محاولاتها في الصومال في الوساطة بين الجبهات الصومالية المسلّحة، منذ التسعينيّات (1998) لم تحقق اختراقاً كبيراً، بل فشلت في احتواء المواقف وحشد الجهود لدفع الأطراف نحو طاولة مفاوضات حاسمة، وعلى وقع أنغام هذا الفشل تراجع الدور المصري لحلّ نزاعات الفرقاء في البلاد، فهل يمكن أن تلعب القاهرة دورَ الوساطة في الصومال، لحلّ أزماته الطويلة، تحديداً بين الحكومة الفيدرالية وإقليم أرض الصومال، وهل تملك آليات دبلوماسية للعب دور في التوسّط بين الحكومة الصومالية وحركة الشباب، برغم انعدام مُؤشّرات أيّ تقارب فكري وأيديولوجي بين الجانبين، و يرى بعضهم أنّ مسار أيّ تفاوض ترعاه القاهرة سيكون محكوماً بالإعدام والفشل قبل أن يرى النور، إذ لم تحقّق جهودها لحلّ الأزمة بين الأطراف السودانية أخيراً، وكذلك الأزمة الليبية التي ابتعدت القاهرة عنها كثيراً في تفكيك ملفّاتها المُعقَّدة داخلياً، بحكم انكفائها في أزماتها الداخلية، والغرق في معضلات اجتماعية واقتصادية داخلية تستحوذ على صلب اهتمام دوائر صنع القرار في القاهرة، ولهذا فإنّ أيّ وساطة مصرية لحلّ الأزمة الصومالية تسبقها خطوات فعّالة لبناء جدار الثقة أولاً مع الجانب الصومالي، وتشكيل تحالفات إقليمية تصبّ في مصالحها في المنطقة، ومواجهة خصومها على نحو جدّي، وعدم المراوغة وبعيداً عن سياسة الترقّب والمتابعة في دخول شراكات حقيقية مع دول المنطقة، ربّما يمكن بعد ذلك كلّه أن تلقى الكلمة المصرية آذاناً مصغيةً في تجنيب المنطقة أزمات وحروب إقليمية جديدة.

اللافت أن الصومال يحمل اليوم مصيراً مشتركاً مع مصر في مواجهة المخطّطات الإثيوبية للوصول إلى منفذ بحري في البحر الأحمر، وكذلك أزمة المياه التي يمكن أن توظّفها أديس أبابا ورقةَ ضغطٍ على الصومال ومصر في آن واحد، لتحقيق أجنداتها ومصالحها، بحكم أنّ استكمال الملء الخامس (والأخير) لسدّ النهضة يُشكّل ضرراً كبيراً في حصّة مصر المائية، وهذا ليس خافياً على المسؤولين المصريين، قبل السواد الأعظم من المزارعين في صعيد مصر، كذلك في حال أقدمت إثيوبيا على بناء سدود صغيرة في المرتفعات الجبلية التي ينبع منها نهر شبيلي، أطول نهر في الصومال، يمثل أيضاً كارثةً بيئيةً زراعيةً جديدةً تحوّل مساحاتٍ شاسعةً من الأراضي الزراعية أرضٍ قاحلةً، ما يضعف قدرة كلّ من القاهرة ومقديشو على الصمود أكثر أمام مخاطر تراجع الانتاج الزراعي سيّما في مصر، لكنّ ارتدادات عكسية نتيجة السياسات المائية الإثيوبية الأحادية الجانب تجاه الدولتَين ستكون كبيرة، وهو ما يُؤدّي إلى انهيار العلاقات الدبلوماسية والاقتصادية على نحو كامل في نهاية المطاف، ويزيد الضغوط على حكومة أبي أحمد من المنظّمات الأفريقية والدولية.

أخيراً، تبدو الصومال راهناً ساحةً لتصفية الحسابات الجيوسياسية بين مصر وإثيوبيا، بعد عقد من التوتّرات بينهما، خاصّة عقب بدء مشروع سدّ النهضة عام 2012، نتيجة سياسات حكومة أبي أحمد السريعة كقطار بلا مكابح في المنطقة، والتي أدّت إلى نزاعات عسكرية في إثيوبيا (حرب إقليم تيغراي 2020) لم تندمل جروحها بعد، ومخاوفَ جديدةٍ من حدوث أزمة أمنية عسكرية مع الصومال، إذا باشرت حكومته في عملية نشر الأسطول الإثيوبي في المياه الصومالية من دون اتفاق رسمي مع الحكومة المركزية في مقديشو، ما سيُؤدّي إلى تفجير المنطقة أمنياً، لتتحوّل ساحات المعارك من الجنوب الصومالي إلى إقليم أرض الصومال، لتكون منطقةً ملتهبة بين أطراف محلّية وأخرى خارجية، ستغذّي هذا الصراع حتماً، ما يُؤثّر سلباً في استقرار أرض الصومال، التي عرفت طعم الهدوء الأمني في محيط مضطرب أمنياً منذ نحو ثلاثة عقود. ولاستباق أي خطر أمني إقليمي يُهدّد أمن الصومال من الداخل وجواره، يعوّل الصومال على وقفة مصرية للمساهمة في بناء الجيش الصومالي، والدفاع عنه تنفيذاً للاتفاقات العسكرية المُوقّعة بين الجانبَين، لكن هل يمكن أن تقدّم مصر المُكبّلة بسلاسل ظروفها الداخلية والإقليمية الدعمَ للصومال لحماية مصالحها المائية والجيوسياسية، أولاً وقبل كلّ شيء، في منطقة القرن الأفريقي؟

(مراسل تلفزيون العربي في مقديشو)

الانتخابات الأميركية... المال يصنع ديمقراطية الأثرياء

محمد طيفوري

يلعب المال دوراً أساسياً في الانتخابات الأميركية، حتّى قيل إنّ «المال لبن السياسة في الولايات المتّحدة»، في إشارة إلى حضوره القوي في توجيه الشأن السياسي، تماشياً مع البيئة السياسية الأميركية المنفتحة، وبشكل غير طبيعي، على الاستخدام السياسي للمال. فقد بات النفوذ المتنامي للمال كابوساً مُتكرّراً، في كلّ دورة انتخابية، رئاسيةً كانت أو نيابيةً، مع تزايد أعداد رجال الأعمال الذين سخّروا أموالهم للعبة الديمقراطية. يعدّ النظام في الولايات المتّحدة، خلافاً لأغلب النظم السياسية في العالم، نظاماً مفتوحاً، يسمح بمساهمة المال في تشكيل الأجندة السياسية للمرشّحين إلى جانب الصراع الأيديولوجي، بل ويحدث أن يتفوّق عليه أحياناً، ما يثير الأسئلة عن سطوة المال على السياسة، وينزع كثيراً من المصداقية عن فكرة الليبرالية التي تزعم أنّ المواطنين يملكون حظوظاً متساوية في اختيار من يمثّلهم في السلطة.

حضور المال في «سوق» السياسة في الولايات المتّحدة ليس بالحدث الطارئ، فقد سبق للأكاديمية البريطانية نورينا هيرتس أن كشفت تفاصيلَ مثيرةً عن ذلك، في كتابها «السيطرة الصامتة: الرأسمالية العالمية وموت الديمقراطية» (2002)، بحديثها عن الدور الأكبر للمال في تبوّء المراكز الأولى في المشهد السياسي الأميركي، فـ«العلاقة بين الهِبَات المُقدّمة للحملات والأصوات في الكونغرس تكاد تكون بلا نهاية».

ظهرت هذه الممارسة، في التاريخ السياسي الأميركي، في ثلاثينيّات القرن التاسع عشر، مع الرئيس أندرو جاكسون (1829-1837) الذي كان أوّل مُرشّح رئاسي يُنفق مبلغاً كبيراً (مليون دولار) في تدبير الحملة الانتخابية، قبل أن تتغيّر القواعد بدءاً من سبعينيّات القرن الماضي، مع تزايد حجم الإنفاق، وكذا طبيعة المساهمين فيه، دورةً بعد أخرى، حتّى بات تجاوز الرقم القياسي السابق في التمويل، رهان الحزبَين (الديمقراطي والجمهوري) عند كلّ محطة انتخابية. كسرت الحملة الانتخابية الرئاسية مع المُرشّح باراك أوباما سقف المليار دولار، خلال ولايته الثانية عام 2012، ضدّ المُرشّح الجمهوري ميت رومني، واعتبر ذلك حينها إنجازاً تاريخياً في الرئاسيات، علماً أنّ حملة الحزب الديمقراطي في عام 2008 قد نجحت في جمع مبلغ 1,2 مليار دولار، كان نصيب أوباما (الرئاسة) منها 778 مليون دولار. قفز المبلغ في انتخابات عام 2016، الرئاسية والتشريعية والمحلّية، إلى سبعة مليارات دولار، واستقرّ في آخر محطّة انتخابية، عند حدود 15 مليار دولار، منها ستة مليارات دولار للرئاسيات، فيما ذهب الباقي، أي تسعة مليارات دولار، إلى انتخابات الكونغرس وحكّام الولايات والانتخابات المحلّية.

> شعور لدى الأميركيين بأنّ اللعبة الديمقراطية خضعت للتزوير، وأصبحت رهينةً بين أيدي الأثرياء فقط

يُتوقّع أن يتخطّى الإنفاق في انتخابات 2024 سقفَ 20 مليار دولار، مع توالي اهتمام رجال الأعمال الكبار بالتنافس الانتخابي، دعماً لهذا المُرشّح أو ذاك، فأموال الملياردريرات تتدفّق لتجعل هذه الانتخابات الأغلى في التاريخ الأميركي. وتحدّث الأكاديمي روبيرت رايش (وزير العمل الأميركي الأسبق) في مقال بصحيفة الغارديان عن ضخ 50 عائلة أميركية فقط لأزيد من 600 مليون دولار في هذه الدورة، معظمها لصالح الحزب الجمهوري.

يبقى الملياردير إيلون ماسك أشهر هؤلاء الملياردريرات، فقد استضاف في منصّة إكس، أواسط الشهر الماضي، المُرشّح الجمهوري دونالد ترامب في لقاء مفتوح لأزيد من ساعتَين. وقبل ذلك بأسابيع قليلة، أقام حفلَ عشاء ضمّ عدداً من رجال الأعمال، بهدف إعادة تثبيت ترامب في البيت الأبيض. كما قدّم تبرّعاً سخياً، لمجموعة عمل سياسي تعرف باسم America pac، تركزّ جهودها في دعم حملة ترامب، في تحوّل دراماتيكي من رجل أعمال طالما أعلن استقلاله السياسي بعيداً من الصراعات الحزبية. تتلقّى الحملات الانتخابية التبرّعات من الأفراد بشكل مباشر، لكن في حدود 3300 دولار لكلّ مُرشّح، بزيادة قدرها 400 دولار عن آخر استحقاق انتخابي، ولمرّتَين فقط؛ أي أنّ سقف التبرع لن يتجاوز 6600 دولار ما بين الانتخابات التمهيدية والانتخابات العامّة. وكان السيناتور عن ولاية فيرمونت، بيرني ساندرز، أشهر مجسّد للتمويل الشعبي في التاريخ الانتخابي الأميركي، بعد حصوله على 60 مليون دولار من إجمالي 107 ملايين دولار من تبرّعات تقل عن 200 دولار. كما تتلقى تلك الحملات التمويل من طريق اللجان التي لها حقّ الحصول على أموال عامّة من دون تسقيف، شريطة الاحتفاظ بسجلّات مفصّلة لأنشطتها المالية، قصد عرضها بعد الانتخابات أمام لجنة الانتخابات الفيدرالية. تبقى هذه الشفافية ناقصةً، فهي تتعقّب المال في المآل فقط، ولا تبحث عن مصادره الحقيقية، إذ بمقدور اللجان تلقّي الأموال من جهات مختلفة من دون الكشف عنها. وتعزّز الأمر أكثر عام 2010 بعد قرار المحكمة العُليا في قضية «المواطنون المتّحدون»، ما فتح الباب أمام التمويل الخفي أو الأموال المُظلِمة.

رغم أنّ هذه الأموال شرعية وقانونية، فإنّ مصدرها المباشر غير معروف، فالمتبرّع، فرداً كان أو شركة عملاقة أو مجموعة ضغط، يقدّمها مباشرة من طريق التبرّع إلى مؤسّسات غير ربحية في بداية الأمر، قبل أن تتولّى هذه الأخيرة إعادة التبرّع إلى المُرشّح أو الحزب المفضل لدى المانح الأصلي. بذلك يكون مصدر المال لدى الرأي العام هو المؤسّسة غير الربحية، وليس المتبرّع الحقيقي. أنعش دخول الملياردريرات في الخطّ تدفّق هذا الصنف من الأموال نحو الحملات الانتخابية للمُرشّحين، فالمراقبون يتوقّعون أن يحضر المال المُظلِم بمعدّل أكثر من أيّ دورة انتخابية سابقة. توقّعات زكّاها فسح المجال أمام التمويل الرقمي بإعلان حملة المُرشّح دونالد ترامب، أواخر شهر مايو/ أيّار الماضي، قبول التبرّع بالعملات المُشفَّرة، ليصبح بذلك أوّل سياسي أميركي يقبل هذا الصنف من التمويل في حملته الانتخابية.

التحوّل الأيديولوجي في ثقافة شركات التكنولوجية مُعطىً من شأنه تعزيز حضور هذا المال، فوادي السليكون المعروف منذ فترة طويلة بزعماء لهم توجّهات يسارية باتوا الآن أقلّ ليبرالية، بعد اختيار أغنى مستثمري التكنولوجيا (إيلون ماسك وبيتر ثيل وبن هورويتز وآخرين) دعم دونالد ترامب، مُرشّح الحزب الجمهوري. فيما فضّل آخرون (هوفمان وهاستينغز وساندبرغ وليفي...) دعمهم كامالا هاريس، المُرشّحة باسم الحزب الديمقراطي.

خلف ذلك شعوراً لدى الأميركيين مفاده أنّ اللعبة الديمقراطية خضعت للتزوير، وأصبحت رهينةً بين أيدي الأثرياء فقط، فالتبرّعات الانتخابية التي تصل إلى مبالغ من سبعة أرقام، لا تعتبر تبرّعاً، بقدر ما هي «فواتير مؤجلة» يلتزم المُرشّح أو الحزب بسدادها بعد الفوز، بدعم وحماية مصالح الأقلّيات المانحة، وليس بدعم المصلحة العامّة للشعب الأميركي.

يمثّل شراء الانتخابات بالمال، دعما لهذا المُرشّح أو تصدّياً لذاك المُرشّح، على غرار ما تعرّض له داعمون للقضية الفلسطينية من اللوبي الصهيوني (خصوصاً من أيباك)، إضافة إلى ديكتاتورية الحزبَين؛ أي نظام الثنائية الحزبية التي تهيمن على الانتخابات كافّة (الرئاسية والتشريعية والمحلّية)، وفكرة المجمّعات الانتخابية، التي قد تكون سبباً وراء منع الفائز بأصوات الناخبين من الرئاسة، أمثلة عن الأعطاب والاختلالات التي تفضح حقيقة الديمقراطية الأميركية (؟).

(كاتب مغربي)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

رئيس التحرير معن البياري ■ مدير التحرير ارنست خوري ■ المدير الفني إميل منعم ■ السياسة جمانة فرحات ■ الاقتصاد مصطفى عبد السلام ■ الثقافة نجوان درويش ■ منوعات ليال حداد ■ المجتمع يوسف حاج علي ■ الرياضة نبيل التليلي ■ تحقيقات محمد عزام ■ مراسلون نزار قنديل

المكاتب
■ المكتب الرئيسي، لندن
Ealing Cross, Second floor, 85 Uxbridge Road, London, W5 5TH
Tel: 00442045801000
■ مكتب الدوحة
الدوحة ـ برج الفردان ـ لوسيل ـ الطابق الـ 20 ـ
هاتف: 0097440190600
■ مكتب بيروت
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads